العرب
السبت 2020/03/14
السنة 42 العدد 11646

شاعر عربي على خطى لوركا في نيويورك

فاروق يوسف يكتب ذاته العميقة في مدينة المستقبل

ما يحدث عندما يتقاطع شاعران في مدينة (لوحة للفنان شارل إيلي كوتور)

ما الذي يرجوه شاعر معاصر وهو يقتفي أثر شاعر آخر خارج المكان الذي تعرّف إليه في مرايا قصيدته؟ سؤال ملح ونحن نتتبع رحلة الشاعر العراقي فاروق يوسف متعقبا خطى الشاعر الإسباني غارسيا لوركا في مدينة نيويورك التي لا تعترف بزمن غير المستقبل.

مفيد نجم
كاتب سوري

بين مرآة الشاعر والمكان الذي لا يشبه أي مكان آخر في مدينة مثل نيويورك يمضي الشاعر فاروق سعيد وهو يستعير خطى من سبقه باحثا عن المدينة الأخرى في مدينة كهذه لم تتوقف يوما عن تبديل أقنعتها الكثيرة والركض نحو المستقبل بقوة دون أن تلتفت وراءها نحو من سحقتهم بأقدامها وقد طغى صخبها الكوني على كل شيء، حيث يختلط وجه الشاعر مع وجوه كثيرة سبقته لشعراء وكتاب أميركيين ومن العالم عبرت هذا المكان ولم يبق من أثر للمدينة الأسطورة إلا ما حفلت به من دونوه من كتابات عنها.

> في اليوميات يتداخل الشعر مع النثر السردي بحثا عن المعنى في مدينة تختلط فيها المعاني والأشياء والصور

في كتاب الشاعر فاروق يوسف شاعر عربي في نيويورك على خطى لوركا في منهاتن والفائز بجائزة ابن بطوطة عن فئة اليوميات نحن أمام قصيدة طويلة تختزل هذه التجربة المركبة التي يحاول فيها الشاعر البحث عن أثر المكان وصورته في مرايا شاعر إسبانيا العظيم لوركا وعن المدينة في المدينة التي تطل على جهات العالم كلها وقد أغلقت أبوابها الكثيرة (على مُرابيين ومصرفيين وأباطرة فن وصانعي مصائد ومخترعي ألعاب وراقصين حفاة ومتزحلقين على زئبق مرايا لصورها تأثير ضربات العاصفة ومركبي جمل من هواء وقتلة متأنقين).

في هذه المدينة التي تحتشد بالغرائب والأقنعة والوجوه التي تتداخل بلكناتها وملامحها وهي تركض نحو المستقبل دون أن تتوقف عن صناعة الدهشة وصناعة كل شيء حتى بات من الصعب وصفها، في هذه المدينة يستعيد خيال الشاعر جزءا مهما من تاريخ منهاتن العجيب والمروع في زمن تجارة العبيد بينما هو يعبر شوارعها ويتأمل صورتها محاولا أن يجد تعريفا لها.

يتداخل الوصف مع الانطباعات والصور والمشاعر التي تتدفق في لغة شعرية مكثفة وموحية يحاول فيها الشاعر أن يقبض على تلك اللحظة المتسللة بسرعة وهو يعبر في متاهة هذه المدينة ووسط هندستها الخيالية وصورها التي لا تتوقف عن اختراعها في كل لحظة.

ما يفعله الشاعر ينخرط في تجارب خاضها شعراء سابقون لتعريف ما لا يعرف في هذه المدينة، ثمة إغواء وثمة عجمة في المكان عليك أن تفك حروفها. في اللقاء الأول مع المدينة يعترف بالعجز عن الإحاطة بها لأنها أكبر من مدينة وأغرب من أسطورة، لكنه لا يستسلم لسطوة حضورها وهو يواصل السير على إيقاعها السريع والصاعد، يقول "أجلس على ضفة النهر لأصف ما أراه. أمامي منهاتن. أبنية حمراء متشابهة. أنا في بروكلين المياه تمرّ كما الوقت. كنت أفكر بما يجري في وادي السيليكون وفي شارع الشيخ عمر في وقت واحد. أنظر إلى ظلي. يوم مشمس في بلاد تصل إليها الشمس متأخرة".

تتوزع هذه اليوميات على مجموعة من العناوين التي يحاول فيها الشاعر أن يقول كل شيء رآه بعينه أو بخياله أو من خلال ما يتولد لديه من انفعالات وصور أو بلاغة تفيض بالمعنى في مدينة هي أقرب ما تكون إلى الخيال.

يتداخل الشعر مع النثر السرد في هذه اليوميات بحثا عن المعنى في مدينة تختلط فيها المعاني والأشياء والصور، يقول يوسف "عليك أن تتسلق سلما طويلا لتصل إليها من غير أن تلهث. تصل إلى وجهها المتأمل، المبتسم والصافي، إلى شعرها القطني الذي لا يتوقف عند ساعة بعينها، إلى يدها التي تروي الحكايات بلغة صامتة، إلى رسومها التي تطوي الزمن مثل صفحة كتاب لتصل إلى الأبد".

في هذه المدينة التي وصفها من سبقه من شعراء بأنها مدينة بلا روح نجد الشاعر يبحث عن روحه الضائعة في متاهتها الكبيرة، دون أن ينسى مصائر شعراء آخرين قضوا فيها بصورة تراجيدية عجيبة تعكس الطبيعة العجيبة لهذه المدينة. لذلك لا يبحث الشاعر في حاضر المدينة وأساطيرها التي صنعتها لنفسها بقدر ما يحاول أن يبحث عن صورتها من خلال تلك العلاقة التي أنشأها كتاب وشعراء معها، ومحاولة المطابقة بينها وبين ما يراه ويشاهده لأنه يدرك أن مدينة بهذه الوجوه الظاهرة والمخفية يصعب أن تدرك كنهها دون مرايا كثيرة سرعان ما تخرج منها لكي تصنع أقنعة جديدة لها.

يعرف فاروق يوسف أن مدينة مهولة كهذه يصعب تدوين وقائعها على الرغم من شحن لغة هذه اليوميات بطاقة كبيرة من البلاغة، لذلك يترك للغة أن تتداعى وللخيال أن يطير بأجنحته في مدينة بلا أجنحة.

في هذا الإيقاع السريع للغة محاولة للحاق بزمن المدينة السريع وحيواتها حيث تصعب معرفة المدينة دون التأمل فيها. زنوج وهنود حمر وصينيون، قتلة ورسامون وعابرون كثيرون في زمن عابر بين محطات أنفاق قطاراتها الكثيرة وساحاتها ومتاحفها وواجهات أبنيتها الزجاجية العالية ولوحات إعلاناتها الضخمة والعجيبة ومقابرها. ففي مدينة ولكي تظل المدينة الاستثناء يصعب على الزائر أن يتوقف عن الدوران مع زمنها والركض وراءها للقبض على شيء من مجهولها السحيق.

في هذه اليوميات تتحول اللغة إلى مغامرة أخرى تتداخل فيها حيوات البشر مع حيوات الشعراء والكتاب الذين عاشوا فيها مع حيوات الشاعر الباحث عن حكاية جديدة في مدينة الحكايات كما يصفها وهو يعبر بين شوارعها وصورها الماثلة بقوة، وحين لا يجد لغة أخرى أو أجنحة يطير بها يستعين بالشعر عله ينقذه من هذا الضياع على أبوابها.

من الصعب على شاعر يقتفي أثر شاعر آخر في مدينة عجيبة كهذه أن يكتفي بتدوين ما رآه طالما أن ثمة ما هو مستتر وعجيب وصعب المنال ما يجعل هذه اليوميات تمارس لعبة المدينة نفسها من خلال بلاغتها الكثيفة. وهكذا يتحول المكان إلى صفحات يحاول الشاعر أن يكتب عليها وقائع ما يستحيل وصفه أو القبض على معناه الهارب، الأمر الذي نجده في هذه المقاطع والعناوين الكثيرة التي تتوزع عليها يوميات الشاعر وكأنه عاجز عن التقاط أنفاسه في هذه المغامرة لاستعادة خطى شاعر مرّ في هذه المدينة التي لا تتوقف عن صناعة نفسها من جديد.

المكان والتنوع الثقافي

حميد سعيد
كاتب عراقي

يحضرني سؤال بصورة مستمرة، وهو، هل يمكن أن تكون ثقافة ما، بعامة، والإنتاج الفكري بجميع مفرداته، على وجه خاص، بعيدة عن تأثير المكان؟ ومثل هذا السؤال لا يمكن أن يظل في الحدود النظرية، أي أن الإجابة عنه ليست إجابة نظرية، وإنما تعتمد المشهد التاريخي بما تأسس عليه من تجارب وما اقترنت به من شهادات.

إن القول بتأثير المكان في الثقافة، لا يعني عنصرية المكان، فتبادل التأثير بين الحضارات وأثر ما أبدعت كل حضارة في الحضارة الأخرى رافق التاريخ الإنساني منذ بداياته، فتأثير الحضارتين القديمتين في بلاد الرافدين ومصر، في الحضارة الإغريقية صار واضحا، رغم كل محاولات التعتيم التي مارستها المركزية الغربية، مع أن هذا التأثير اعتُرف به على أكثر من صعيد، في الأساطير والطب والرياضيات، بل في الموسيقى أيضا، فحين بحث كوتنر في المدونات الموسيقية الإغريقية، وجد أنها موسيقى شرقية.

لقد كان التأثير وما زال يأتي من الاختلاف، ولو لم يكن الاختلاف، فليس للتأثير ضرورة، وقد عبر عن ذلك أندريه جيد في قوله "لأنك تختلف عني، أحبك، ولا أحب فيك إلا ما يختلف عني".

إن ما يميز ثقافة عن أخرى وإبداعا عن إبداع يكون بتأثير المكان، الذي هو نتاج خصوصيات تاريخية وبيئية ولغوية، ويبدو لي أن هذا الاختلاف هو مصدر الاهتمام، فالدراسات الاستشراقية في توجهها الموضوعي، كان اهتمامها بما هو مختلف في الشرق فحاولت دراسته، لكنها في توجهها السلبي، حاولت توظيفه في خدمة مشروعها المحكوم بدوافع المركزية الغربية، وكان الاهتمام بالفلسفة اليونانية من قبل العلماء المسلمين هو الآخر قد ركز على ما هو مختلف لمعرفته والتعمق فيه، وتكرر ذلك مع المنجز الثقافي الآسيوي، وكان بيت الحكمة ببغداد في العصر العباسي، مركزا نشيطا في المجال المعرفي المنفتح على الآخر، وكذلك كان الوسيط الأندلسي، ومن ثم امتداداته في أقطار المغرب العربي.

وما زال اهتمام المركزية الغربية بما هو شرقي يركز على المختلف، سواء صدر هذا الاهتمام عن نزعة كسر المألوف، عبر الفرجة والبحث عن الغرابة أم عبر الالتفات إلى ما يكتنز هذا المختلف من إمكانات تجديدية، وأن الاهتمام بألف ليلة وليلة مثلا، هو دليل على ما نقول، وليس من المرفوض المستهجن، ورحم الله الجاحظ الذي قال "ما زال الناس بخير، ما بقي الأول، حتى يتعلم الآخر".

إن المكان في مجال تحديد الخصوصية، ليس هو الحديد والحجارة والإسمنت، وليس هو الحاضر مقطوعا عن الماضي، وليس هو الواقع مؤمنا من فعل الخيال، وليس هو الأنهار والغابات والجبال فحسب، بل هو الإنسان في تفاعله مع كل ما ذكرنا، لذا كان الشعراء والكتاب والتشكيليون والمعماريون أكثر التصاقا بما هو مشخص في المكان، منذ طفولة الكتابة أو حتى في المرحلة الشفهية، وهذا ما يمكن رصده في الأساطير والملاحم والأناشيد ومن ثم في مرويات الأيام والسير والشعر والنثر في تكوينهما الإجناسي.

إن عوليس أشهر أعمال جيمس جويس، يتوحد بناؤه السردي مع دبلن المكان، وإن أغلبية أعمال نجيب محفوظ هي محاولات مستمرة لاكتشاف القاهرة، ويبدو لي أحيانا أن خيري شلبي كان يتحرك في فضاء قاهري لم يصل إليه نجيب محفوظ، وكأنه يحقق فرادته في فرادة المكان، وفي الرواية الجديدة التي طالما اعتمد منظروها منهجا يؤكد على الابتعاد عن كل ما له علاقة بالسيرة الذاتية، لكن مثل هذا التنظير لم يتحقق في الكتابة الروائية، ويعترف آلان روب غرييه، أحد أشهر كتاب الرواية الجديدة، أن البعض من رواياته التي كتبها في ذروة اندفاعه التنظيري للرواية الجديدة، لم يبتعد عن مقومات السيرة الذاتية، وبخاصة المكان.

إن إسطنبول أورهان باموق، الكاتب التركي الذي نال جائزة نوبل، تكاد تذكّر القارئ بقاهرة نجيب محفوظ، فهي المكان الذي يتحرك فيه أبطاله، وهي تمتد بين ماضيها وحاضرها وتتيح له مكانا روائيا ساحرا يتسع لجموح المخيلة والتجريب، أما إسطنبول أليف شفق التي "لم تسمح لها أن تنسى" فهي المكان الذي يتسامح بكرم مع وعيها في إدخال الواقع مدخل الأسطورة، وهي تذكرني بجيكور السياب الذي جعل شواخص المكان، بويب وبيت الجد ومنزل الأقنان وشباك وفيقة، عالما أسطوريا جميلا، وليس من عمل روائي مجيد إلا واقترن بالمكان ومن التجارب الروائية الاستثنائية في الكتابة عن المكان، تجربة لورنس داريل، هذا البريطاني الذي نشأ في الهند وتنقل في عدد من البلدان، من بينها مصر، حيث كتب "رباعية الإسكندرية" تلك التي قدم فيها رؤية تجمع بين الغموض والدهشة، تجعل منها واقعا ساحرا.

ولم يكن الشعر بعيدا عن أثر المكان، و أثر المكان في الشعر، كتبت عنه في إحدى مقالاتي قائلا "ليس القصد كتابة قصيدة وصفية، وإنما كيف يظهر المكان في القصيدة، وما هو أثر المكان على طريقة عمل الشاعر ومقومات العمل الشعري، رؤية وموقفا وأداة".

> ما يميز ثقافة عن أخرى وإبداعا عن إبداع هو تأثير المكان، الذي هو نتاج خصوصيات تاريخية وبيئية ولغوية

إن الشاعر العربي القديم، لم يصف ما كان يراه، بل يصف ما يتمثل ويتمثل ما يصف، والقول إن الشاعر يتمثل ما يصف ليس تفاصحا أو مجرد لعب باللغة، بل هكذا كان الشعر، والمكان في القصيدة ليس هو المكان في الواقع، وهذا الذي وضع الشاعر في موضع المختلف عن سواه، فهو خدين الجن حينا وهو الحكيم حينا آخر حيث يرى ما لا يراه الآخرون، ويقول ما ليس باستطاعتهم قوله، وإذا كنا قد ألفنا المتشابه في المعلقات مثلا بفعل قراءة اتباعية، تحتكم في ما ترى إلى الزمان، فإنها "المعلقات" وبفعل المكان فيها المختلف مثل ما فيها المتشابه، إن لم نقل أكثر منه.

وإذا كان تعدد المكان هو حاضنة التعدد الثقافي، فالمختلف في الثقافات وبالتالي في الإبداع الثقافي، حالة إيجابية، تتيح للإنسان في الأماكن المتعددة والتواريخ المختلفة أيضا، الانفتاح على الآخر والحوار معه والتأثر به.

المكان ليس مجرد بناء (لوحة للفنان نجيب بلخوجة)

بهية مارديني ترصد ما يغفله المؤرخون: المشاعر

لندن – عن دار ريدوكس للطباعة والنشر في لندن صدر أخيرا باللغة الإنجليزية كتاب "الكلمات تبحث عن حروف" للصحافية والكاتبة السورية بهية مارديني.

وجاء الكتاب في 94 صفحة من القطع المتوسط، خصصته مؤلفته للحديث عن وطنها سوريا كما تراه هي التي أجبرت على مغادرته. وتقول مارديني إن كتابها يجسد رحلة الألم بعيدا عن الوطن.

وتؤكد "لم أكن أفكر أن أغادر بلدي وأهلي ولكنها الحرب والظروف التي دفعتني إلى هذا الخيار الإجباري".

وتتساءل الكاتبة "ماذا يعني أن تموت مئة مرة في عذاب الرحيل والألم من دون أن تموت؟ ماذا يعني أن تحاول أن تعيد الحياة إلى جسدك وروحك وقلبك في تفاصيل ضاعت حروفها وتحتاج إلى معجزات لتركيبها؟".

وتلفت المؤلفة إلى أن كتابها يحاول التقاط لحظات مما حصل لسوريا وللسوريين لا كتأريخ وإنما كرصد للمشاعر التي غالبا ما تهملها الأخبار والمؤرخون، بينما هي وظيفة الأدب.

وتشير مارديني إلى أنه "من الصعب أن أتحدث عن سوريا لأن الحديث يستنزف قلبي ويأخذ من روحي الكثير ولكني أردت أن أعبر عن وجهة نظري، وأدعي أني أتشارك بها مع كثير من السوريين".

وتؤكد المؤلفة أن التحدي كان كيف نزرع الأمل لوطن بعد أن حرقت الحرب ربيعه، وكيف نصنع حياة جديدة بعد أن تشردنا في المنافي وأصقاع الأرض وتخرب من نفوسنا ما تخرب وبقي من قلوبنا ما بقي.

وتوضح أنها كتبت ذكرياتها القريبة والبعيدة عن سوريا، ذكريات تشترك فيها مع آخرين، قادتها إلى أمل بأن يتعافى بلدها.

وتتحدث مارديني في الكتاب عن ذكرياتها في رأس السنة وأعياد الميلاد وعن رمضان والعيد وعن الحرب في سوريا ورحلة الخروج من الوطن والغربة والوجع والحنين، وغيرها، لكنها لا تفقد الأمل في نصوصها.